الممارسة النّحوية واكتساب الملكة اللغوية
عند ابن هشام الأنصاري

د. ذهبية بورويس
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة

الملخص:

إنّ السبيل إلى إتقان العربية عند ابن هشام الأنصاري (ت761هـ) لم يكن في الإحاطة بقوانين هذه الصّناعة، وإنّما باستنطاق النّصوص من القرآن الكريم والحديث الشريف، وكلام العرب ليصبح النّحو عنده هو نحو النص، وليس نحو القاعدة، تتآلف فيه الآلة والغاية لممارسةٍ تُحفظُ بها الملكة اللّغوية القادرة على فك ما يُشكل ويُستغلق على ذوي الاختصاص.

إنّ السبيل إلى إتقان العربية لا يكمن في الإحاطة بعلومها وتتبع قوانين صناعتها، فهذا ممّا يحصّل دون أثر أو إبداع، وإنّما يتحقق الإتقان إذا حَسُنَ التعبير، وأبْلغ المراد، وأحْكِمَ السبك وانسجمت الصياغة تلقيًا وتأثيرًا.

والاقتدار على مثل هذا الأمر يكون باكتساب الملكة اللّغوية التي هي أساس التحكم في اللغة والتصرف فيها، هذه الملكة التي كانت غاية علماء اللغة، الذين سعوا للحصول عليها عند الناطقين الفصحاء في البادية، والحضر. وهي نفسها مقصد الدّرس النّحوي واللّغوي، بها تستقيم الألسن، وتُدرك الأفكار والمعاني، والتّصرف فيها هو استعداد للإنتاج والاستجابة لكلّ الظروف والأحوال.

النّحو ركن من أركان اكتساب الملكة اللّغوية:

إنّ العملية الحضارية مرهونة في جوهرها بهذه الملكة التي بناها ابن خلدون على أربعة أركان وهي اللّغة والنّحو والبيان والأدب، وإذا كان النّحو أولها وأهمها من حيث الدور والأهمية فإنّه مع بقية الأركان الأخرى وسيلة لامتلاك ناصية اللّغة[1] ولذلك نقول إنّ وصف الملكة بركن من هذه الأركان وهو اللّغة وصْفُ الشامل الجامع لأنّ اللّغة كما يقول ابن خلدون: «... في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك فعل لساني فلا بدّ أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللّسان، وهو في كلّ أمّة بحسبِ اصطلاحاتهم، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات، وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، من المجرور

---

[1] – مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، ص 603.

أعني المضاف ومثل الحروف التي تقضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلّف ألفاظ أخرى، وليس يوجد ذلك إلاّ في لغة العرب»[1].

إنّ ابن خلدون يُقرّر مفصّلاً في تعريفه للغة ما قرّره ابن جني من قبل في حدّه لها بربط اللّغة بوظيفتها الإنسانية والاجتماعية والرسالية حينما قال: «حدّ اللّغة فإنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم ... »[2].

فإذا كانت اللغة هي عبارة المتكلم عن مقصوده فحرّيٌّ بمن حصلت له الملكة فيها أن يُبِينَ عن أغراضه ومقاصده من غير تكلف وبضروب الإيجاز والاختصار التي هي من سنن العربية التي تحتكم إلى آلية الإعراب في الإبانة عن الدلالات دون تمحل، وبالإشارة الإعرابية، وهذا ممّا لا يتوفر في اللّغات الأخرى كما ذهب ابن خلدون، فاللّغة الإعرابية مُنْتِجَةٌ للدلالة «لأنّها توفر مظهرًا محسوسًا لعملية الاقتران بين الوجود القاموسي للألفاظ ووجودها السياقي... وهكذا يصبح النّحو إيذانًا بخروج اللفظ من مخزوننا المعجمي إلى أدائنا التداولي، ويصبح الإعراب –بما هو تشكل تنصاع فيه الأجزاء الملفوظات لنسق البناء التركيبي– هو الصورة الحسيّة المثلى لاكتمال جنين الدلالة، وما الإفضاء به إلاّ إعلانٌ عن ميلاد المعنى»[3].

فالمعاني تبدأ مع الإيذان بخروج اللّفظ من المخزون المعجمي إلى الأداء التداولي ولا يتحقق هذا إلاّ بامتلاك آلية الأداء الحاصلة عن الملكة اللّغوية، والتي تعني لنا لغةً

---

[1] – مقدمة ابن خلدون، ص 603–604.

[2] – الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النّجار، تقديم عبد الكريم الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط (2006م)، 33/1.

[3] – العربية والإعراب، عبد السلام المسدى، مركز النشر الجامعي، ط (2003م)، ص 70.

احتواء الشيء والاستبداد به والقدرة على التحكم والتصرّف فيه[1]، إلى درجة يصبح معها هذا الأداء طبْعًا ممارسًا فعالاً للوظيفة اللّغوية الراسخة يقبَلُ التغيير ويأبى التغيّر السطحي الراهن.

إنّ هذه القابلية تكون مبنية على الإحساس باللّغة كطَبْع داخلي قادر على المقارنة والتعليل، ولا يمكن لهذا الإحساس أن يزول بظروف مفتعلة سطحية، لأنّه بواسطة هذه الملكة يُتعرّف على الظواهر اللّغوية والكلامية وعللها، إنّها ملكة يقودها الطبع الراسخ في العقل على الوجه الذي فطِر عليه الإنسان، وهذا العقل في صورته النّقية «... هو ماهية الأشياء وعللها ...»[2].

كذلك كانت الملكة اللّغوية عند العرب قادرة بتميزها على استشراف الدلالات المغيّرة ولا أدل على هذا من الظاهرة القرآنية بأساليبها فهي خير مفسّر للدلالات والمعاني المفتوحة والمنسجمة مع الممارسة العقلية الصانعة في المجتمعات.

وممّا لا شك فيه أنّ عناية العلماء بعلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض وحفظ النّصوص والمفردات وأيام العرب، هو وسيلة أولى وآلة لاستحضار العربية في فطرتها النقية وعلى مدى مراحل مستمرة متجذرة في الموروث الفكري، وفي المنتوج الأصيل والمبدع، فامتلكت اللّغة عند العرب أسباب الحصانة من كلّ ردّة أو وجسٍ أو

---

[1] – لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، لبنان، مادة "ملك".

[2] – العلم في منظوره الجديد، تأليف روبرت أغروس ستانسيو، ترجمة: كمال خلايلي، سلسلة عام المعرفة، الكويت، ط(1989م)، ص 31–35.

ضعف ولم تفتقد بهذه الأسباب مضادات انتكاس الملكة اللّغوية، المفسّرة برسوخ للكليات المعرفية المقروءة والمكتوبة والمستشرفة لما هو مطلوب[1].

فأهل هذه اللّغة أدركوا من قبل أنّ التفكير لا يكون إلاّ بالتعبير، وأنّ التعبير لا يكون إلاّ بالتفكير، وهذه المزاوجة بين هذين الشقين تمثلت في قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]. فالتماس التفكير والاجتهاد العقلي والآليات الذهنية والحسية تنجر عن لغة هذا الكتاب الكريم وهي العربية، لغة القرآن الكريم.

التأليف في النّحو ومطلب شرف الغاية :

لا أحد ينكر مدى الجهد الذي بذله علماء النّحو متعاقبين في التأليف في هذا العلم لتثبيت قواعده التي بها تتعيّن المقاصد الكلامية وبوسائله وآلياته يتم الكشف عن حقائق الظاهرة اللّغوية التي تمثلت شامخة في القرآن الكريم قال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]. لقد دفع النّص القرآني بالعلماء إلى إيجاد الوسائل الأولى للحفاظ على هذا النّص من لحن في الظاهر وخفاء المعنى في الباطن قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4].

---

[1] - يُنظر سلسلة الأمة "في شرف العربية"، إبراهيم السامرائي، الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، (1415هـ-1994م)، المقدمة، ص 8.

[2] - سورة الزخرف: الآية 03.

[3] - سورة يوسف: الآية 02.

[4] - سورة الحجر: الآية 09.

هذا السبب دفع بكثير من علماء النّحو ومنهم ابن هشام الأنصاري إلى صياغة علم النّحو صياغة تتناسب وشرف هذه الغاية في تأليفه الموسوعي المسمّى مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب فقال:

«فإنّ أولى ما تقترحه القرائح، وأعلى ما تجنح إلى تحصيله الجوانح ما يتيسر به فَهْمُ كتاب الله المنزّل ويتضح به معنى حديث نبيّه المرسل، فإنهما الوسيلة إلى السعادة الأبدية، والذريعة إلى تحصيل المصالح الدينية والدنيوية، وأصل ذلك علم الإعراب الهادي إلى صَوْب الصواب ...»[1].

لعلّ ابن هشام في قوله هذا قصد بعلم الإعراب علم النّحو الذي تحوّل عنده إلى ممارسة نصية قصد الولوج إلى دواخل النّص وفك مقفلاته إذ يقول عن منهجه في هذا الكتاب: لقد تتبعت فيه «مقفلات مسائل الإعراب فافتتحتها ومعضلات يستشكلها الطلاّبُ فأوضحتها ونقحتها، وأغلاطًا وقعت لجماعة من المعربين وغيرهم فنبّهت عليها وأصلحتها»[2].

فالنّحو عند ابن هشام أداة للمتابعة النصية ووصفها فيما استُغلق من استحضار النصوص وهو آلة لفتحها، ومفتاح للمعضلات أي لِما استبهم و لم يُفهم، كما أنّه تنبيه إلى الأخطاء ومعيار للتقويم والتصويب[3].

---

[1] - مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط (1407هـ-1987م)، 9/1.

[2] - مغني اللّبيب، 9/1.

[3] - سلسلة الأمة "في شرف العربية"، إبراهيم السامرائي، ص 14.

فإذا كان ابن هشام قد وقف على هذه الحقيقة في القرن الثامن الهجري فإنّه بهذا اكتسب مزية استكمال ما بدأه السابقون فرسخَ هذا العلم لملازمته الحقائق المعرفية التي جعلت هذا العلم في مرتبة المسلمات المكتسبة الأولى يقول إبراهيم السامرائي مثبتًا هذا الرأي «وقد لا نرى ضيرًا أن نقول: «إنّ وضع علم النّحو والصرف وتقعيد القواعد، إنّما كان في الحقيقة، سبيلاً إلى حماية الألفاظ والدلالات القرآنية، وضبطها بمعهود العرب في الخطاب، حيث نزل القرآن بلسان عربي مُبين ...»[1].

وابن هشام من علماء النّحو واللّغة الذين أسسوا لممارسة المادة النّحوية موضِحًا ومنقحًا ومنبّهًا ومصْلِحًا قاصدًا امتلاك آليات ضبط الألفاظ بمدلولاتها، وفيما رُوي عنه أنّه طُلب إليه أن يضع لطلبته كتابًا في تفسير القرآن الكريم، فوضع لهم كتابه الذائع الصيت "مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب" وهو فيه يتوخى ضبط دلالات الألفاظ والأدوات ومعانيها كما ورد في الباب الأول من كتابه الذي خصصه لـــ "تفسير المفردات وذكر أحكامها"[2]، وكذا الحال في بقية الأبواب. فمادة هذا الكتاب، كلّها مزاوجة تدريبية بين القاعدة النّحوية وممارستها المؤسسة لقوانين وقواعد القراءة اللّغوية الدلالية، التي اجتهد فيها صاحبها لإدراك المصطلح القرآني باحتمالاتها كلّها[3].

كذلك كانت غاية علماء النّحو منذ سيبويه إلى فترات متأخرة، هي التماس وسائل كاملة متكاملة في حفظ اللّسان العربي من الزلل لأنّ انحراف وزيغ الألسن

---

[1] – المرجع نفسه، ص 14.

[2] – انظر، مغني اللّبيب، 13/1.

[3] – انظر، شرف العربية، ص 14.

يترتب عنه زيغٌ في البصيرة والإدراك والفهم، وهذا يُشكل خطرًا على أصول المقاصد، وبالاستناد إلى رأي ابن خلدون السابق في أنّ أركان اللّسان العربي أربعة مرتبة كالآتي: اللّغة والنّحو والبيان والأدب فالمقدم منها هو النّحو وإن كانت جميعها ضرورية على أهل الشريعة لأنّ «... مأخذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب والسنّة وهي بلغة العرب ... والذي يتحصل أنّ الأهمّ فالمقدّم منها هو النّحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة... ولولاه لَجُهل أصل الإفادة ...»[1].

فإذا كان النّحو من علوم العربيّة التي يصان به اللّسان وتتوقد به الأذهان تلقيًا وتبليغًا، فكيف تتحقق ممارسة هذا العلم لاكتساب الملكة اللّغوية مُلخصة في أركانها الثلاثة الأخرى ؟ وهل الدربة في هذا العلم تكون بمعرفة قوانين صناعته، أم أنّ ممارسة هذه القوانين بحسّ نصيّ تتقاطع فيه القاعدة مع الأركان الأخرى، هي الطريقة الأمثل لحفظ اللّغة ودوامها سليمَةً وفعّالة ؟.

لعلّ الجواب عن هذا التساؤل وإثارة أسبابه وحقائقه ممّا سيُحْمَلُ نظرةً وتحليلاً فيما تحقق عند ابن هشام الأنصاري.

---

[1] – مقدمة ابن خلدون، ص 603.

الممارسة النّحوية عند ابن هشام الأنصاري:

رسم ابن هشام الأنصاري منهجًا مغايرًا لمناهج الذين سبقوه في الممارسة النّحوية التي تفاعلت في مصنفاته المعروفة وبخاصة في ديوانه* "مُغني اللّبيب عن كتب الأعاريب". إذ لجأ إلى البحث عن البديل الأحسن من حيث الطريقة والعرض، وكان ينشد دومًا إفادة الطلبة والمتعلمين وفق حاجة كلّ فئة وكل مرحلة وكلّ تخصص متطلّعًا بذلك إلى حصول ملكة قادرة على فتح النّصوص المغلقة التي تتحلّى بها الدّلالات وتتحقق بها المقاصد وقد ساعدهُ على توظيف وابتداع الآليات التعليمية في ترسيخ الملكة النّحوية ظروف عصره التي أكسبته مزيّة التفرّد هذه المزية التي تعدّ من سنن تعاقب العلماء عبر الأزمنة فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي يثبت هذه الحقيقة قائلاً «... من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه حتى يستوي فيه القوي والضعيف لفعلنا، ولكن يجب أن يكون للعالم مزيّة بعدنا»[1].

فمضامين المادّة النّحوية واللّغوية قابلة لاستيعاب المناهج والطرائق في كلّ مرحلة، وفي الفعل "يكون" الوارد في قول الخليل دلالة على مطلب التفعيل والحضور والإبداع المتفرّد مما قد يحصل عند المتأخرين وهو ما حصل عند ابن هشام الأنصاري الذي ينتسب إلى طبقة علماء القرن الثامن الهجري .

---

* - وهي تسمية أطلقها ابن خلدون على هذا الكتاب حُكْمًا على قيمة وتفرّد وموسوعية هذا الكتاب. انظر: المقدمة، ص 605.

[1] - هذا القول أورده ابن يعيش في شرح المفصل تصحيح وتعليق مشيخة الأزهر، إدارة الطباعة المنيرية، مصر 1 /2.

لقد ولد هذا النّحوي سنة (708هـــ) وتوفي سنة (761هـــ)، بالقاهرة، وكانت نشأته بالقاهرة كما تذهب المصادر التاريخية[1]. عاملاً مؤثرًا في تكوينه وجودَةِ تأليفه، التي طبعت مواصفاتها بعض ملامح الحياة العلمية في عصر المماليك هذا العصر الذي تميّز بظواهر جَادة ومتفرّدة في التأليف اللّغوي. ولعلّ هذا يعود إلى فرص التعليم والتحصيل التي أتاحها حكّام ذلك العصر للنّاس كافة وللعلماء خاصة الذين عكفوا – على مستوى الدرس اللّغوي- للأخذ بأسباب اللّغة ومعرفة دقائقها مما دفع بواحد كابن هشام، وغيره إلى حفظ نصوصها الراسخة في المدونة المعرفية لدى العرب فمالوا إلى التأليف الموسوعي والتعليمي.

تنبّه حكام هذه الفترة إلى أنّ العربية من الدّين وأنّه لا سبل إلى فهم العقيدة والتزام الشريعة بغير علوم العربية. فوقفوا من العلماء موقفًا إيجابيًا إذ أنفقوا عليهم من غير تردد أو حساب، وأنشأوا المدارس وبنوا الجوامع، وسخّرت هذه المؤسسات للدرس والتحصيل في مجال اللّغة والدين ومبادئ الحساب ومعرفة الفقه والحديث والتفسير فضلاً عن الدراسات العقلية من حكمة ومنطق، وكانت آلة التحصيل هي اللّغة بمجموع وسائلها وأنظمتها[2].

---

[1] - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيّد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني، ط2، (1385هـــ-1966م)، 415/2، وانظر حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية مصر، ط (1387هـــ1967م)، 536/1. وانظر: بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، (1399هـــ-1979م).

[2] - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، كاهين

عوامل نجاح الممارسة النّحوية عند ابن هشام:

تضافرت عوامل عديدة هيّأت ابن هشام لاكتساب مهارات الممارسة النّحوية التي أحسن تأديتها فنفَع بها متعلّمًا ومعلّمًا، وبذلك توفرّت له كل الأدوات والوسائل التي مرّر بها المادة النّحوية لحصول الملكة لدى طلابه وقرّاء مصنّفاته وبخاصة في ديوانه الموسوعي مغني اللّبيب، ولعلّ أهم عاملين كان لهما الدور الأكبر في الممارسة النّحوية عند ابن هشام هما:

1 – المؤسســـة التعليميـــة النظـــامية:

شهِدَ القرن الثامن الهجري عناية كبيرة بالمؤسسة المدرسيّة ودور العلم والجوامع، وكانت هذه المؤسسات محفِزًا نشيطًا في نشر العلم، وإنزال العلماء منازلهم، للمحافظة على استقرار الحكم، وحفظ التّراث العلمي من الضّياع، حتى لا يتكرر في مصر ما حدث في بغداد، وتحوّلت بذلك مصر إلى مصدر إشعاع فكري في العالم الإسلامي[1]. فأولى علماؤها لعلوم الدين والفلسفة واللّغة عناية فائقة ورأوا كما رأى غيرهم من قبل في المشرق، أنّ وسيلة فقه حلّ العلوم هي العربية بفروعها وميادينها المختلفة فبرعوا فيها وتدبروها في مصنّفات موسوعية ضخمة مثل ارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي (ت 745هـــ)، والجنى الداني في حروف المعاني لتلميذه أبي القاسم المرادي (ت 749هـــ)، وشرح ألفية ابن مالك كذلك لتلميذه ابن عقيل (ت 769هـــ)، وقبله مغني

كلود، ترجمة: بدر الدّين القاسم، بيروت، ط1، (1972م)، 383/1، وما بعدها.

[1] – المدرسة النّحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط2، (1410هـــ-1190م)، 95-97.

اللّبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري (ت 761هـــ) [1] وهو الذي سمِعَ عن أبي حيّان ديوان زهير بن أبي سلمى و لم يلازمه ولا قرأ عليه[2].

وما كان هؤلاء العلماء وغيرهم أن يصلوا إلى ترسيخ جهودهم، وتحصيل مراتبهم العالية، لو لم تكن هناك عناية من قبل الحاكم بالمؤسسة التعليمية، مثل دور العلم، والجوامع والخوانق، والرّبط والمدارس. فمن الجوامع جامع ابن طولون، جامع الأزهر، جامع الحاكم، الجامع الأقمر، الجامع الأفخر، جامع العطارين بالإسكندرية، ومن المساجد مسجد عمرو بن العاص، ومن المدارس، المدرسة العادلية الكبرى والمدرسة العادلية الصغرى[3].

فهذه المدارس والمؤسسات عكست السياق التاريخي الذي قرئت به الجهود المنظمة للعلماء في القرن الثامن الهجري، وكان ابن هشام واحدًا منهم، إذ هيّأت له ظروف عصره بما توفرّ فيها، من مؤسسات تعليمية واقعًا حيويًا لاكتساب وتحصيل علومه في العربية والفقه والحديث والتفسير، والشّعر مما ساعده على استثمار كلّ الموارد والأدوات المعرفية التي اكتسبها في إثراء المادة النّحوية، وكانت البداية في عملية تحصيله قد رسخت إرادة هذه الممارسة.

«فمن المرجّح أنّ ابن هشام قد أتيحت له فرصة التعلّم الأولى، على أيدي المؤدبين الذين يبدأون مع الصبيان بتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة، فيعلمونهم قراءة

---

[1] - منهج ابن هشام من خلال كتابه المغني، عمران عبد السلام شعيب، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، (1986م)، ص 13، وانظر: المدرسة النّحوية في مصر والشام، ص 301.

[2] - الدرر الكامنة، 2/308-309.

[3] - المدرسة النّحوية في مصر والشام، 97-105.

القرآن، وكتابة اللغة وقواعدها وبعض الشّعر، وآداب الدّين وشيئًا من مبادئ الحساب، ثمّ ينتقل الصبيّ بعد ذلك إلى المدارس حيثُ يتطور تعليمه ...»[1]. لينتقل إلى مدارسة بقية العلوم بما فيها النّحو والصرف.

ويبقى عِلْمُ العربية مرافقًا للمتعلّم في المؤسسة التعليمية على مدى مراحله التعليمية يتدرج فيه حتى ترسخ معارفه في هذا الفنّ، ليستثمره في تحصيل ما تبقى من العلوم التي يطلبها من قراءات قرآنية وأدب وفقه وحديث وتفسير، لتصبح هذه العلوم أدوات أخرى مستثمرة في إثراء المادة النّحوية.

وهذا ما وقفنا عليه عند ابن هشام فلّما اكتملت وتكاملت معارفه تصدّر لتدريس علوم العربية في مصر وفي مكة حين جاور بها، وأقرأ كتاب سيبويه، ودرس الفقه، والتّفسير والحديث وشرح ديوان زهير بن أبي سلمى[2].

لقد وفرت المؤسسة التعليمية في القرن الثامن لابن هشام أسباب إكساب هذه الملكة لغيره من الطلاّب، والمتعلّمين، بارتياده المدارس ودور العلم، التي جمعته بالمتلقين والآخذين عنه فأدرك ما يُطلب من المضامين وما يُنتفع به من المناهج والطرائق في تفعيل تلك المضامين، ووقف على أنّ الملكة لدى المتعلّم تحصل بالمدارسة « وبالممارسة والاعتياد والتّكرار لكلام العرب ... »[3].

---

[1] – ابن هشام الأنصاري حياته ومنهجه النّحوي، عصام نور الدّين، الشركة العالمية للكتاب، مكتبة المدرسة، دار الكتاب العالمي، ط (1989م)، ص 15، وانظر: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، عاشور سعيد، القاهرة، ط (1959م)، ص 191. وما بعدها.

[2] – ابن هشام الأنصاري، حياته ومنهجه النحوي، ص 15–19.

[3] – مقدمة ابن خلدون، ص 620–622.

2 – توظيف الآليات الذّهنية والمهارات العلمية:

كان احتكاك ابن هشام المباشر بالمتلقي هو الذي قاده إلى إثراء المادة بالاستدراكات العجيبة والفوائد الدقيقة والتحقيق البالغ والاطلاع المفرط والملكة الراسخة التي أخرجها من الطّبع إلى القوة، ومن الحفظ إلى التفعيل والممارسة[1].

لقد أخذ ابن هشام بكلّ الأسباب التي جعلت النّحو عنده عِلْمًا نافعًا حيويًا شريفًا، فأخضع مادته للممارسة العلمية في تلك المؤسسات مع طلبته فأسقط عليها خبرته وموهبته واقتداره الميداني في الدّرس والتحليل والنّظر، والمتابعة[2]. شأنه في ذلك شأن الوصي المخلص الذي آمن بوصايته فنفع بها.

كان ابن هشام في كتابه المُغني معلّما وطالبًا في الوقت نفسه تستوقفه استفسارات وتطلعات طلبته ليضيف ويصوّب، فهو أشبه بالصّانع الذي أحكم صنعته متبصرًا واعيًا فمارسها وخرج به من الأقيسة والقوانين إلى العمل ذاته[3]. فاستنطق النصوص من كلام العرب ليرتسِم في خيال الطالب المنوال الذي نُسجَت عليه التراكيب ، فينسجُ هو على منواله. وما كان سيكون على هذا النهج لو لم يكن صاحب فطنة وذكاء، لقد استثمر هاتين الخصلتين في مدارسة كتب النّحويين قبله دراسة «تقوم على الدّقة والبحث، والمناقشة والاستنباط، وكان له مع أصحابها نزاعٌ وجَدَلٌ يقومُ على منهجٍ عقلي منظم.

---

[1] – مقدمة ابن خلدون، ص 639، وانظر: الدرر الكامنة، 308/2. والملكة اللّغوية في الفكر اللّغوي العربي، السيد الشرقاوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، (1422هـ–2002م)، ص 65.

[2] – المدرسة النّحوية في مصر والشام، ص 358، 359.

[3] – مقدمة ابن خلدون، ص 620–621 .

لقد أشار المؤرخون إلى قدراته الذهنية ومهارته العقلية التي ساعدته في ممارسته النّحوية التي لا يحْرِزُ فيها السَّبق إلاّ من كان قادرًا على تدبرها واستنباط أحكامها وإثارتها وملاحظتها. كان ذكاء ابن هشام منعطفًا حاسمًا في توجيه الدرس النّحوي فنفع الطالبين بفوائده الغريبة ومباحثه الدقيقة واستدراكاته العجيبة وبقدرته على التحقيق البالغ والاطلاع الواسع والتصرّف في الكلام مسهبًا وموجزًا[1].

وهو بذلك يُعدّ «خاتمة المجتهدين الذين استوعبوا مسائل هذا العلم، ونبغوا فيه نبوغًا عظيمًا جعلهم أئمة يُشار إليهم بالبنان»[2].

فالمادة النّحوية محرّكة للعقول وموقدة للأذهان لأنّ شواردها من روح النّحو إذا كانت مسلطة ومردودة إلى النّص أمّا غرض قواعد هذا العلم وأقيسته فموقوفة على الترتيب والمنهج لأنّ بناء هذه القواعد محكم وراسخ تأسيسًا وتأصيلاً عند القدماء.

أدرك ابن هشام بذكائه آليات الممارسة النّحوية التي سخرها بخاصة في كتابه "المغني" لنفع الطالبين وغيرهم فاستحق بذلك الثّناء وشدّ إليه الألباب في عصره فقد «تصدّر للتدريس، وانتفع به النّاس وتفرّد بهذا الفنّ، وأحاط بدقائقه وحقائقه، وصار له من الملكة فيه ما لم يكن لغيره، واشتهر صيته في الأقطار، وطارت مصنّفاته في غالب الدّيار»[3].

---

[1] – المدرسة النّحوية في مصر والشام، ص 358، 359، وانظر: الدرر الكامنة، 309/2.

[2] – المدرسة النّحوية في مصر والشام، ص 358.

[3] – البدر الطالع، بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني، بيروت، دار المعرفة، 401/2.

لقد ارتقى ابن هشام بالنّحو ليكون وسيلة من وسائل وظيفة اللّغة الأداة المسخّرة للتواصل وهي بذلك تمثّل بما تختزنه من دلالات النصوص أرقى القنوات في عملية التواصل[1]، وما النّحو في صورته الوظيفية إلاّ وسيلة لعبور تلك القناة.

مظاهر الممارسة النّحوية عند ابن هشام:

مارس ابن هشام النّحو صناعة زمنا، فوقف عند حقائقه وأدواته، والتمس مقدماته الكبرى والصغرى، ليوطِدَ قواعد هذا العلم ويعيد عرضه وتقديمه بطرائق متنوعة، راعى فيها الفئات الطالبة لهذا العلم والمراحل التي تندرج عندها موضوعات النّحو وتفاريعه. ارتأى أن يوزع المادة النّحوية تدريجيًا لتحصل الفائدة ويؤدي الغرض وترسخ بذلك ملكة اللّسان أو اللّغة وهي المقصودة في كلّ جهوده لِمَا أكثر من شواهد ولِما استنطق من نصوص سَاءلها مع طلاّبه ووقف على النّظر في تأليفها متخِذًا القاعدة وسيلة للكشف عن نظامها ونسجها ودلالاتهـــا[2].

إنّ مصنّفات ابن هشام كلّها نافعٌ مفيد تلُوحُ منه أمارات التّحقيق وقوة الاطلاع، وهي مجتمعة ترسم لنا صورة واضحة لمنهجه في النّحو، الذي اتخذه آلة طيّعة لتحقيق الغرض الذي وضِع من أجله.

والظاهر أنّ عناوين مصنّفاته تُحلي طرائق تأليفه وعرضه للمادة جامعًا بين الإيجاز، والتفصيل. فمؤلفه شرح قطر الندى وبلّ الصدى هو تفصيل لمقدمته، ورسالته

---

[1] – المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي العربي الأصول والامتداد، أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ص 20–121.

[2] – سنقف على نماذج من ذلك لا حقًا. وانظر: مقدمة ابن خلدون، 620–621.

المختصرة قطر الندى وبل الصدى، وكتابة شرح شذور الذّهب هو تفصيل وتوضيح لمختصره شذور الذّهب وكتابة أوضح المسالك هو شرح للخلاصة الألفية لابن مالك[1] الذي قال عنه «... ولا أخلي منه مسألة من شاهد أو تمثيل ...»[2]، وتكتمل براعة ابن هشام في ممارسته النّحوية النافعة في ديوانه الموسوعي مُغني اللّبيب عن كتب الأعاريب الذي أشار فيه إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول[3]. ذلّلت النّحو وجعلته مستساغًا مقبولاً في الطباع يُرْجى لتحقيق الأغراض والمقاصد.

ويمكن بالنّظر إلى مصنّفات ابن هشام أن نوزع ممارسته النّحوية على قسمين، ممارسة نحوية تعليمية وممارسة نحوية فنية. أما الأولى فنمثّل لها بمصنفه التعليمي المشهور شرح قطر الندى وبل الصدى وأمّا الثانية فقد حواها مصنفه الضخم مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب وهما معًا وسيلة للباحثين وللناشئين لامتلاك الركن الأوّل في بناء الملكة اللّغوية، لقد صاغ ابن هشام هذه الممارسة النّحوية التعليمية في هذه المصنّفات بالإيجاز والتلخيص ثم بالبسط والتوضيح مراعيًا مستوى الطّلاب ومراحل تبلغهم بهذا العلم فمن المقدمات والرسائل المختصرة إلى الشرح والتوضيح والتمثيل، ممّا يُمكّن المتلقي من الانتفاع بحسن العرض ووضوح الفكرة[4] على النّحو الذي يُحليه على سبيل التمثيل، مؤلفاه شرح قطر الندى وبل الصدى ومغني اللّبيب عن كتب الأعاريب.

---

[1] - المدرسة النّحوية في مصر وشام، ص 364-369.

[2] - شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري، مطبعة الحلبي، 1/14-16.

[3] - انظر: مقدمة ابن خلدون، ص 605.

[4] - انظر: شرح شذور الذهب، ابن هشام، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، المكتبة العصرية، مقدمة المحقق، ص 04، 05.

1 – الممارسة النّحوية التعليمية في شرح قطر الندى وبل الصدى:

وهذا الكتاب شرح لمقدمة صغيرة في النّحو سمّاها قطر الندى وبل الصدى وقد رأى ابن هشام أنّها تمثل ملاحظات كلية بل قطرات في النّحو يَعوزها أن تُنْهلَ بأداة التفصيل والتوضيح، فألف هذا الشرح المعروف وضمَّ فيه أبواب النّحو المتشابهة بعضها إلى بعضٍ، فوضَعَ بابًا للمرفوعات، وآخر للمنصوبات وقِسمًا ثالثا للمجرورات بعد حديثٍ عن أقسام الكلم والمبني منه والمُعْرب[1].

إنّه في هذا الكتاب مثّل دور المعلم لا دور المؤلف، وهو في أثناء عرضه للمادة أدرك بأنّها نافعة لمرحلة أولى من مراحل تحصيل هذا العلم، فأسس لكليات هذا العلم دون الإغراق في الفروع والخلافات متوخيًا التوضيح الموجز في دعمه القاعدة بالشواهد من القرآن الكريم ومن كلام العرب لِيُنْسجَ على منوالها، ولعلّ هذا هو الذي دفع بابن هشام ليقول «... فهذه نُكَتٌ حررتها على مقدمتي المسمّاة بـــ "قطر الندى وبل الصدى" رافعةٌ بحجابها، كاشفة لنقابها، مكملة لشواهدها، متمّمة لفوائدها، كافية لمن اقتصر عليها وافية بِبُغْيةِ مَنْ جنح من طلاّب العربية إليها»[2].

ففي قوله مكملة لشواهدها متممة لفوائدها كافية لمن اقتصر عليها اعتراف من المؤلف بأنّ ما أورده في الشرح قد حقق غرضه عند طلاّب العربية من المبتدئين، ولعلّ هذا لم يكن قاصرًا على من عاش في زمانه وإنّما هو ممتد إلى كلّ طلاّب العربية في كلّ

---

[1] – انظر: ابن هشام الأنصاري، حياته ومنهجه، ص 39–42.

[2] – شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط2، (1418هـــ–1997م)، ص 30.

عصره؛ وها هو محقق الكتاب الشيخ محي الدّين عبد الحميد يقول مثنيًا على هذا المصنّف: «وهو أحد كتب العربية التي أولعت بها منذ الصغر، وأحد الكتب التي كان لها في نشأتي العلمية أجمل الأثر، فالله يعلم أنّي انتفعت به في زمن الحداثة انتفاعًا كان له أثرٌ جدٌّ واضحٍ في ميولي ونزعاتي، وإنّي مازلت أجِدُ في نفسي آثار هذا الانتفاع القديم عَهْدُه إلى اليوم ...»[1].

إنّ هذا الامتداد يدل على تطويع هذا العلم في اكتساب ورسوخ الملكة التي لم تزعزع بردود الزمن وأحواله. رأى ابن هشام في مصنّفه هذا أنّ شرح المقدمات والكليات الأساسية الأولى كاف لمرحلة المبتدئين دون الإغراق في الفروع والخلافات بمنهج يوجز في التوضيح.

كما «رأى –وهو على حق– أنّ العمق في مناقشة مسائل النّحو لا تتفق إلاّ مع من بعث في هذا العلم، وصعد إلى قمته»[2]. والتمس وسائله التوضيحية النافعة وفي مقدمتها الشواهد من كلام العرب، فهي المذيلة لهذا العلم بالحفظ والوعي، وحصول الملكة اللّغوية يكون باستنطاقها وتدبّرها[3]، وفي الكتاب من النّصوص ما يفوق القواعد المصنوعة، إنّها الشواهد التي شكلت منوال العرب في كلامها وطرائق اللّغة في التعبير عن الأغراض والمقاصد.

---

[1] – المصدر نفسه، مقدمة المحقق، ص 7.

[2] – المدرسة النّحوية في مصر والشّام، ص 365.

[3] – انظر: مقدمة ابن خلدون، ص 621.

وهو القائل عن منهجه في شرح شذور الذّهب «... قصدت فيه إلى إيضاح العبارة، لا إلى إخفاء الإشارة وعمدت فيه إلى لفّ المباني والأقسام، لا إلى نشر القواعد والأحكام، والتزمت فيه إنّني كلّما مررت ببيت من شواهد الأصل ذكرت إعرابه، وكلما أتيت على لفظ مستغرب أردفته بما يزيل استغرابه، وكلّما أنهيت مسألة ختمتها بآية تتعلّق بها من آي التنزيل، وأتبعتها بما تحتاج إليه من إعراب وتفسير وتأويل، وقصدي بذلك تدريب الطالب، وتعريفه السلوك إلى أمثال هذه المطالب»[1].

2 – الممارسة النّحوية الفنية في مغني اللّبيب:

يسوقُ ابنُ هشام إلينا دافعه إلى تأليف مغني اللّبيب وهو دافع انبنى على التدرج في التأليف مع المغايرة على مستوى المنهج والمادة، والظّاهر أنّ ما كان من تأليفه في هذا المصنّف وقبله موجه لطلاّب وشيوخ العربية وها هو يُجمل كلّ ذلك في قوله :

«وممّا حثّني على وضعه أنّني لما أنشأت في معناه المقدّمة الصغرى المسماة بـ "الإعراب عن قواعد الإعراب" حسن وقعها عند أولي عند أولي الألباب، وسَار نفعها في جماعة الطلاّب مع أنّ الّذي أودعته فيها بالنّسبة إلى ما ادّخرته عنها كشذرة من عقد نحر، بل قطرة من قطرات بحر»[2].

لقد أقام ابن هشام كتابه المغني على مقدمته المختصرة "الإعراب عن قواعد الإعراب" التي حوت فوائد في قواعد الإعراب ونكت كثيرة هي بدايات لكثير من أبواب النّحو، وقد وقعت هذه الملاحظات من الطلاب والراغبين في هذا العلم موقعًا

---

[1] – شرح شذور الذهب، ص 19.

[2] – مغني اللّبيب، 9/1، 10.

حسنًا فاستدعت بعد ذلك التفصيل والتوسع، وقد حصر ابن هشام مطالبه في هذه المقدمة في أربعة أبواب، بابٌ في جملة وأحكامها وباب في الجار والمجرور وباب في تفسير كلمات يحتاج إليها المعرب، وباب في الإشارة إلى عبارات مستوفاة مُوجزة[1].

فكان بذلك مُبدعًا ومجددًا على مستوى منهج التقديم ولعل دلالات النّصوص هي التي قادته إلى مغايرة السّابقين في الأبواب والمادة.

- النحو القرآني في مغني اللّبيب :

الظاهر أنّ ابن هشام أدرك أن العربية لابد أن تُمتلك نصًا وتُستفتح بعد ذلك بالأدوات النّحوية لتحصل الفائدة المرجوّة، وأوّل النّصوص الّتي يُطلب امتلاكها نصوص القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف، وبعد ذلك كلّ كلام العرب شعرًا ونثرًا، وهذا الترتيب مؤسس على ما جاء في مقدمة الكتاب في قوله: «فإنّ أولى ما تقترحه القرائح، وأعلى ما تجنحُ إلى تحصيله الجوانح، ما يتيسر به فهم كتاب الله المنزّل، ويتضح به معنى حديث نبيّه المرسل»[2].

فالنّحو العربي الأصيل لابد أن تتسع فيه قواعده لتشمل كلّ ما ورد من شواهد دون بَتْرٍ، وهذا ما وقفنا عليه عند ابن هشام إذ نظر إلى النّص القرآني على أنّه يُمثل المدوّنة الأولى التي يوجه بها آراءه، وانتقاداته، وهو بذلك يكثر من الاستدلال بالقراءات القرآنية دون مفاضلة ويأبى ردّها وتضعيفها، فاستحق أن يكون واحدًا من الّذين أسسوا

---

[1] - الإعراب عن قواعد الإعراب ضبط وتصحيح وتعليق: أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الآداب القاهرة، ط3، (1415هـ- 1995م)، ص 12.

[2] - مغني اللّبيب، 9/1.

للنّحو القرآني بعد الفرّاء (ت 207هـــ) وفق النّظرية التي أقامها أحمد مكي الأنصاري على إطار أو ميدان بحث وهو القرآن الكريم بقراءاته المختلفة ومحور ينظر إلى الخلاف بين القاعدة والنّص، وعمود فقري هي مواطن الخلاف، ومقوماتها الأساسية من جانبي الاتفاق والخلاف[1].

لقد استدل ابن هشام بالنّص القرآني استدلالاً وظيفيًا لغويًا، استثمر فيه كثيرًا من ملامح نظرية النّحو القرآني ومن ذلك –على سبيل المثال– قوله في معرض حديثه عن "لَنْ"، وإنكار إفادتها للتأبيد «... ولو كانت للتأبيد لم يُقيّد منفيها باليوم في ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[2]، ولكان ذكر الأبد في ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[3] تكرارًا والأصل عدمه»[4].

وجه ابن هشام هذه الدلالة في "لن" مستندًا إلى تدبّر النّص خلافًا لما جَرت عليه سنن وقواعد أهل الإعراب، وهذه نكت وأسرار لا يتفطن إليها إلاّ من مارس النّحو ممارسة فنّية.

قَبِلَ ابن هشام في مواضع كثيرة من كتابه المُغني القراءات القرآنية، فأثرى تخريجاته وأدواته بوجوهها ووقف منها موقف اللّغوي الذي يتحرى الدقة في الأداء اللّغوي الرّاسخ في –النصوص القرآنية– المتواترة قراءة، فاشتق منها المقاييس واستمد

---

[1] – نظرية النّحو القرآني أحمد مكي الأنصاري، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط1، (1405هـــ)، ص 69.

[2] – سورة مريم: الآية 26.

[3] – سورة البقرة: الآية 95.

[4] – مغني اللّبيب، 284/1.

الأصول على نحو ما فعل الكوفيون فأثرى هذا المنهج اللغة وزاد من رصيدها، وجعلها غنية على الدوام بأساليبها[1].

مرّ معنا سابقا أن النّحو القرآني على نحو ما ذهب إليه أحمد مكي الأنصاري يترتب عن أوجه القراءات القرآنية، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ ابن هشام كان مستأنسًا كثيرًا بالقراءات القرآنية موجّهًا بها القواعد والدلالات مدركًا بأنّها أداءٌ مثرٍ للّغة مرسّخٍ لآليات اكتسابها، وكلّ ما ورد منها عنده كان مقبولاً مُسوّغًا للأداءات والمعاني وميّسرًا لكثير من أدوات صناعة النّحو.

لقد تضافرت الآيات القرآنية في كتابه تضافرًا كبيرًا وفي مواضع ليست بالقليلة في شكل «قراءات متواترة قرأ بها بعض القراء السبع، أو قراءات آحاد قرأ بها غيرهم، أو قراءات شاذة قرأ بها بعض القراء الآخرين»[2].

ومن ذلك قوله في معرض حديثه عن اللاّم العاملة للجزم وبيان أدائها عند العرب «... أمّا اللاّم العاملة للجزم فهي اللاّم الموضوعة للطلب، وحركتها الكسر، وسليم تفتحها، وإسكانها بعد الفاء والواو أكثر من تحريكها، نحو ﴿فَلْيَسْتَجِيبُـــواْ لِـــي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾[3]، وقد تُسكّن بعد ثُمَّ نحو ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا﴾[4] في قراءة الكوفيين وقالون والبزّي وفي ذلك ردٌّ على من قال: إنّه خاص بالشّعر»[1].

---

[1] – معجم القراءات القرآنية، عبد العال سالم مكرم، وأحمد مختار عمر، ط1 (1402هـ–1982م)، 902/1.

[2] – منهج ابن هشام من خلال كتابه المُغني، ص 320.

[3] – سورة البقرة: الآية 186.

[4] – سورة الحج: الآية 29.

على هذا النّحو يقدم ابن هشام آليات اكتساب الملكة حفظًا ومصدرًا وصوتًا لأنّ النّص عنده أوسع من القاعدة وهذا يتفق كثيرًا ورأيه في أنّ «القراءة * سنّة متبعة، وليس كلّ ما تجوزه العربية تجُوزُ القراءة به»[2].

الحديث الشريف وحجية النّص الرّاسخ في مغني اللّبيب:

استثمر ابن هشام نصوص الحديث الشريف لَما رأى بأنّ هذا النّص، راسخ بتواتره ونهجه في الملكة اللغويّة عند العرب، وما الإعراب إلاّ وسيلة «... يتضحُ بها معنى نبيّه المرسل»[3].

كان ابن هشام حافظًا وعالمًا بالحديث، من المكثرين في الاستدلال به[4] وتقوية وجوه الأداء عن طريقه، وترك الاستشهاد به يُعدُّ خسارة كبيرة تُفقدُ الملكة مصدرًا من مصادر رسوخها ودوامها وغناها، وتحرّج الأوائل من الاستدلال به في مسائلهم منهج

---

[1] - مغني اللّبيب، 223/1.

* - القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد -ﷺ- للبيان والإعجاز والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما.

[2] - انظر هذا القول في البرهان، الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط (1376هـ- 1957)، 138/1.

[3] - شرح شذور الذهب، ص 304.

[4] - انظر: الاقتراح في علم أصول النّحو، تحقيق وتعليق: أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، مصر، ط1 (1396هـ-1976م)، ص 52.

لم يكن فيه إنصاف وعدل[1] لأنّهم «لو أنصفوا لعَدلوا عمّا ذهبوا إليه، لأنّهم كانوا يعلمون مدى حرص المحدثين على سلامة الأحاديث، ومدى ما قاموا به في سبيل المحافظة عليها، وكان المحدثون ولاسيما المتأخرون منهم، من الدّقة، بحيث يُستبعد عن صنيعهم كثير من الشكوك التي أقامها النّحاة عقبات في طريق الاستشهاد بها والأخذ منها»[2].

لكن ابن هشام أنصف وعدل في استثماره لهذا النّص الشريف، فهو لا يقبل الاحتجاج بأيّ حديث ما لم تسنده نصوصٌ أخرى من القرآن الكريم أو من كلام العرب فالنّصوص عنده مكملة بعضها بعضًا في تثبيت قاعدة أو توجيه رأي أو تصحيح دلالة إذا كانت هذه النصوص كلّها هي مصادر الملكة اللغويّة.

ففي موضع حديثه عن رُبّ وإفادتها للتكثير غالبًا وللتقليل قليلاً يقول:

«فمن الأول ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾[3] وفي الحديث [**يا ربّ كاسية في الدّنيا عارية يوم القيامة**][4]. وسُمِع أعرابي يقولُ بعد انقضاء رمضان "يا رُبَّ صائِمِه، لن يصُومَه، ويا رُبّ قائِمه لن يقومه"، وهو ممّا تمسك به الكسائي على إعمال اسم الفاعل المجرد بمعنى الماضي، وقال الشاعر:

---

[1] - انظر: هذه القضية مبسوطة في كتاب مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنّحو، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط 3 (1406هـ-1986م)، ص 52-58.

[2] - المرجع نفسه، ص 52.

[3] - سورة الحجر: الآية 02.

[4] - صحيح البخاري النسخة اليونينية، أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط(1985م). باب التهجد، 62/2.

فيا رُبّ يوْمٍ قد لَهَوْتُ وليْلةٍ ∴ بآنسةٍ كأنّها خطّ تمثـــال[1].

ووجه الدليل أنّ الآية والحديث والمثال مسوقة للتخويف والبيتين مسوقان للافتخار ولا يُناسبُ واحدٌ منهما التقليل»[2].

استمسك ابن هشام بالحديث الشريف نصًا يلزم المتابعة فاستشهد به في المغني سبعًا وسبعين مرّة، واستشهد به في شرح شذور الذهب سبعًا وعشرين مرّة على خلاف علماء القرون المتأخرة ما عدا ابن مالك، وبذلك يكون ابن هشام قد أنزل هذا المصدر بنصوصه المحفوظة الراسخة منزلة الدرس والمتابعة، ففك خيوط تأليفه لإعادة النسج على منواله.

استنطاق الشواهد الشعرية احتجاجًا وذوقًا:

درس ابن هشام شواهده من كلام العرب شعرًا ونثرًا دراسة لغوية أدبية، وقف بها عند نظرات تاريخية ونقدية، جعلت تلك الشواهد تُستأنس وتُحفظ لما أحاطها به من طرافة في التحليل عن طريق الشوارد الإعرابية[3].

وتأتي الشواهد الشعرية عنده من حيث الكم في المرتبة الثانية بعد الشواهد القرآنية إذ بلغت «سبعة وثلاثين وألف بيت أو شطر غالبا أو جزء من شطر في بعض الأحيان»[4].

---

[1] – من [الطويل] لامرئ القيس، انظر: شرح شواهد المغني، السيوطي، تصحيح الشنقيطي، لجنة إحياء التراث العربي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 393/1.

[2] – مغني اللّبيب، 1/ .

[3] – انظر: ابن هشام الأنصاري حياته ومنهجه النّحوي، ص 79.

[4] – منهج ابن هشام من خلال كتابه المغني، ص 338.

احتكم ابن هشام في دراسته للشواهد الشعرية إلى ميزان الغلبة، والكثرة والنُّدرة، والقلة، والاطراد[1]. كما تجاوز ضوابط الاحتجاج المتعارف عليها إلى التمثيل والاستئناس بشعر من هم خارج دائرة الاحتجاج مثل المتنبي وأبي نوّاس وأبي العتاهية، فتمثل بشعرهم للاستدلال على توارد المعاني وتنوعها، لأنّ المعنى عنده لا يمكن أن يقيّد بزمن أو عصر.

وإذا كانت الملكة اللغوية لا تكتسب إلاّ بحفظ النّصوص الراسخة والاستبداد بها ديباجة ومعنى فليس هنا أرسخ من شعر العرب ومنثورهم فيها أسبق زمنًا في الطبع والملكة والشعر بخاصة ديوانهم الذي هيأ للعربية معطيات الخلود مصداقًا لقول عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-: «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه»[2].

صنع ابن هشام خطته في الاستشهاد بالشعر من دراساته وآرائه وخبراته النّحوية فاستنطق بِمَلَكته، نصوصه، فبدَا عالِمًا بديوان العرب حافظًا لمناسباته ولرواياته ومدركًا للطائفة عارفًا بخيوط نسجه، ومن ذلك قوله في موضع حديثه عن الهمزة ومجيئها للإنكار الإبطالي : «... ولهذا أيضًا كان قول جرير في عبد الملك*

ألستم خَيْرَ من ركِب المطايَا ∴ وأندى العالمين بطون راحِ[3].

---

[1] - انظر: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، السيوطي، طبع محمد سعيد الرّافعي، مطبعة السعادة، مصر، 140/1.

[2] - العمدة: ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط2، (1955م)، 27/1.

* - ويقصد بذلك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

[3] - البيت من [الوافر] لجرير، انظر: شرح شواهد المغني، 43/1.

مدحًا، بل قيل : إنّه أمدَحُ بيت قالته العرب، ولو كان على الاستفهام الحقيقي لم يكن مدحًا البتةَ»[1].

إنّه كان يعنى كثيرًا بمعنى البيت تحليلاً وفهما. فيقول في موضع حديثه عن "إذ" ومجيئها للتعليل «...وقول الأعشى :

إنّ محلاً وإنّ مرتحلاً ∴ وإنّ في السفر إذ مضوا مهلاً[2].

أي إنّ لنا حلولاً في الدنيا، وإنّ لنا ارتحالاً عنها إلى الآخرة، وإنّ في الجماعة الذين ماتوا قبلنا إمهالاً لنا، لأنّهم مضوا قبلنا، وبقينا بعدهم، وإنّما يصبحُ ذلك كلّه على القول بأنّ إذ التعليلية حرف كما قدمنا»[3].

لم يهدر ابن هشام هذا الرصيد من النّصوص، فوقف عنده موقف الدارس الذي استغل كلّ أدواته فمارس بها قواعد هذا العلم وما ترتب عنها من لطائف وأسرار فتحولت صناعة الإعراب عنده إلى ممارسة فنية، فسهّلها بمداركه وبمنهجه لطالبيه بطريقة التعليم أحيانًا وأحيانًا أخرى باستنطاق الملكات، فجعل النّحو وسيلة لخدمة الغرض الذي وضعت من أجله، وهو دوام عربية محكمه النسج محققة المقصد ؛ عن طريق استثمار كلّ الخبرات في تحقيق هذه الغاية الشريفة.

---

[1] – مغني اللّبيب، ص 17.

[2] – البيت من [المنسرخ] للأعشى، انظر: شرح شواهد المغني، 238/1.

[3] – مغني اللّبيب، 82/1.

قـــائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

1.ابن هشام الأنصاري، حياته ومنهجه النّحوي، عصام نور الدّين، الـــشركة العالمية للكتاب، مكتبة المدرسة، دار الكتاب العالمي، ط (1989م).

2.الإعراب عن قواعد الإعراب ضبط وتصحيح وتعليق: أحمـــد محمـــد عبـــد الراضي، مكتبة الآداب القاهرة، ط3، (1415هـــ- 1995م).

3.الاقتراح في علم أصول النّحو، تحقيق وتعليق: أحمد محمد قاســـم، مطبعـــة السعادة، مصر، ط1 (1396هـــ-1976م).

4.البدر الطالع، بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني، بيروت، دار المعرفة.

5.البرهان، الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القـــاهرة، دار إحيـــاء الكتب العربية، ط(1376هـــ- 1957).

6.بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفـــضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، (1399هـــ-1979م).

7.تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، كاهين كلود، ترجمة، بدر الدّين القاسم، بيروت، ط1، (1972م).

8.حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية مصر، ط(1387هـــ1967م).

9.الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النّجار، تقديم عبد الكريم الحكيم، راضي الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط(2006م).

10. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيّد

الممارسة النّحوية واكتساب الملكة اللغوية عند ابن هشام الأنصاري - د. ذهبية بورويس جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني، ط2، (1385هـ-1966م).

11. سلسلة الأمة "في شرف العربية"، إبراهيم السامرائي، الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، (1415هـ-1994م)، ص 08.

12. شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري، مطبعة الحلبي.

13. شرح شذور الذهب، ابن هشام، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، المكتبة العصرية.

14. شرح شواهد المغني، السيوطي، تصحيح الشنقيطي، لجنة إحياء التراث العربي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

15. شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط2، (1418هـ-1997م)..

16. صحيح البخاري النسخة اليونينية، أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط(1985م).

17. العربية والإعراب، عبد السلام المسدى، مركز النشر الجامعي، ط (2003م).

18. العلم في منظوره الجديد، تأليف روبرت أغروس ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عام المعرفة، الكويت، ط (1989م).

19. العمدة : ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط2، (1955م).

20. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، لبنان، مادة "ملك".

21. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنّحو، مهدي المخزومي، دار

الممارسة النّحوية واكتساب الملكة اللغوية عند ابن هشام الأنصاري - د. ذهبية بورويس الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط 3 (1406هـ-1986م).

22. المدرسة النّحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط2، (1410هـ-1190م).

23. المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، السيوطي، طبع محمد سعيد الرّافعي، مطبعة السعادة، مصر.

24. مصر في عصر دولة المماليك البحرية، عاشور سعيد، القاهرة، ط(1959م).

25. معجم القراءات القرآنية، عبد العال سالم مكرم، وأحمد مختار عمر، ط1 (1402هـ-1982م).

26. مغنّي اللّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط (1407هـ-1987م).

27. مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت.

28. الملكة اللّغوية في الفكر اللّغوي العربي، السيد الشرقاوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، (1422هـ-2002م).

29. المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي العربي الأصول والامتداد، أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط.

30. منهج ابن هشام من خلال كتابه المغني، عمران عبد السلام شعيب، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، (1986م).

31. نظرية النّحو القرآني أحمد مكي الأنصاري، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط1، (1405هـ).